قصة صاحب الجنتين

قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44)

تعدّ قصة **صاحب الجنتين في سورة الكهف** نموذجاً قرآنياً بليغاً يعالج إحدى أعمق الآفات النفسية والسلوكية التي تصيب الإنسان عند الغنى، وهي فتنة المال والولد .إذ تأتي القصة لتضع ميزاناً دقيقاً يضبط تأثر وانبهار الإنسان بمتاع الدنيا الفاني، مبيّنة أن النعم اختبار للمشاعِر والضمائر قبل أن تكون مظهراً للرفاهية والتمكين.

فالهدف الأساسي من سوق القصة هو **تحطيم المقاييس المادية الزائفة** التي تجعل من ثروة الإنسان وجاهه معياراً لفضله أو نيله الرضا الإلهي. تكشف الصراع الأزلي بين نظرتين للدنيا أحدهما مادية قاصرة والأخرى إيمانية عميقة :-

أولا : النظرة المادية للدنيا القاصرة :فالدنيا ليست الغاية ، ولا ينبغي أن يغتر الناس بها ، لكن أهل الدنيا يتكبرون بما يملكون منها ، وتتعلق قلوبهم بالبقاء الزائف فيها

ثانيا : النظرة الإيمانية العميقة : وذلك بالعلم أن النعم محض فضل من الله بل هي إعارة من الخالق لابد وأن يستردها ، وخلال الفترة بين التفضل بها على العبد كعارية استعمال وبين ردها يجب عليه الشكر والانكسار لصاحب النعمة .

قال أبو حفص سراج الدين الحنبلي (وجه النَّظم أن الكفار ، لما افتخرُوا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ، بيَّن الله تعالى أنَّ ذلك ممَّا لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الغنيُّ فقيراً ، والفقير غنيًّا ، وأما الذي تجبُ المفاخرةُ به فطاعة الله وعبادته ، وهي حاصلةٌ لفقراءِ المسلمين ولأغنيائهم على السواء ، وبيَّن ذلك بضرب هذا المثل؛ فقال (واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ) أي : مثل حال الكافرين والمؤمنين كحال رجلين ، أحدهما : كافرٌ ، والآخر : مؤمنٌ)[1]: -

كما تزخر القصة بتوجيهات تربوية تحول الإيمان النظري إلى سلوك عملي يحمي النفس من الطغيان وذلك من خلال ما يلي : -

- **ترسيخ عقيدة الفناء والبعث** : بالتنبيه إلى خطورة الركون إلى الدنيا والظن بأن النعم مخلدة ("مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا")، والدعوة لليقظة الدائمة بلقاء الله.

[1]) اللباب في علوم الكتاب ج10 ص 458

- **الصحبة الصالحة الناصحة** :إبراز دور الصديق المؤمن المتجرد الذي لم تمنعه وشائج الصحبة من قول الحق، ومواجهة المغرور بالوعظ الحكيم والتحذير من عاقبة البطر.
- **رد النعم إلى المنعم** :التربية على رؤية يد الله الخالق والرازق وراء كل نجاح دنيوي، وليس التغني بالجهد الذاتي أو العبقرية الشخصية.

كما ركزت القصة على فقه التأدب عند التمتع بالدنيا فوضعت دستوراً أخلاقياً وجمالياً للتعامل مع زينة الحياة الدنيا، يتلخص في أدبين رئيسيين:-

الأدب الأول : أدب قولي وقلبي عند رؤية النعم :وهو ما أرشد إليه الصاحب المؤمن بقوله" :وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ"؛ وهو اعتراف مبدئي بأن النعمة مشيئة إلهية لا يد للمرء في استبقائها إلا بحفظ الله.

الأدب الثاني : عدم الازدراء والاستعلاء :التوقف عن قياس منازل الناس ومقاديرهم بما يملكونه من حطام الدنيا، فالعطاء الدنيوي لا يلازم المحبة الإلهية، والفقير اليوم قد يكون أغنى الناس غداً بفضل الله وثوابه الباقي.

في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ لمحةٌ بيانية تخبو في تفاصيلها أسرار القسمة الإلهية؛ فقد آثر الحكيم الخبير أن يبسط الرزق لأحدهما بسطًا فجمع له الجنتين معًا، ولم يوزعهما بينهما، ولا خصَّ كل واحد منهما بجنة، بل ترك الآخر صفر اليدين في حسابات المادة. **وفي هذا المنع الظاهري عين العطاء والبصيرة؛ إذ حَمَى سبحانه عبده المؤمن من فتنة المتاع الفاني**، ليغنيه بفضله ويهبه الغنى الأكبر وهو غنى النفس والرضا بمولاها.

وإذا كان ظاهر الأمر يستدعي السخط في ميزان أهل الدنيا—إذ قد تضيق النَّفْس البشرية ذرعًا بحظّ غيرها وتتساءل: كيف يُفرَد امرؤٌ بجنتين ويُحرم آخر؟—فإن قلب المؤمن ينبض بيقينٍ مغاير، فلا يملك إلا التسليم والرضا. إنه يعلم علم اليقين أن النعم لا تنزل منازلها بحسب مراتب الإيمان، ولا تتدفق وِفق حسابات الاستحقاق البشري، وإنما هي موازين "الابتلاء". فالله سبحانه يبتلي عبدًا ببسط النعم ليختبر شكره، ويبتلي آخر بتقتيرها ليمتحن صبره، والغاية في الحالين واحدة: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾. ورغم تباين صور الابتلاء وظواهر المحن والمنح، فإن العدالة الإلهية قائمة؛ فمجموع حظوظ كل إنسان من النعم والابتلاءات يتساوى في نهاية المطاف مع مجموع حظوظ أخيه، وشتان بين بلاءٍ يرفع الدرجات وبلاءٍ يورث الدركات.

وتنطوي هذه العبرة القرآنية على إشارة لافتة تعكس واقع الرسالة المحمدية؛ فكما اصطفى الله صاحب الجنتين بماله، فقد اختص سبحانه نبيه ورسوله محمدًا ﷺ بالرسالة الخاتمة، فلم تنزل على أحدٍ غيره من أهل الكتاب. وهذا الاختيار الرباني المحض كان يقتضي من المعاصرين له أن يقابلوه بالإذعان والرضا والتسليم التام، اقتداءً بالصاحب المؤمن الذي وعى حقيقة الفضل الإلهي، لا أن يقعوا في شِراك السخط والاعتراض، أو تنهش قلوبَهم نيرانُ الحسد، وهو الداء الذي رمى القرآن بصره إليهم في قوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.(النساء54)

قوله (جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) (32) يبين كيف أن الله تعالى عندما يخص عبدا بالفضل فإنه يغدق عليه بالنعم ، فيكون ذلك أشد لفتنته أو أدعى لشكره ، كما قال سليمان لما أوتي من فضل ربه (قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (40) .





فالأعناب والنخيل هما خير متاع الزراع ، لأن النخيل يطرح تمرًا هو أساس قوت المسلم ، والأعناب تنتج زبيبا هو كذلك من قوت الرحالة ، ووضع الزرع بينهما هو أساس علم الهندسة الزراعية [2]، وسبب ذلك أن **النخل يحيط بالمزروعات** فيكون مصدا جيدا للرياح فلا يتلف الزرع ، **والأعناب تكون بمثابة سقف للمزروعات** ما يمنع تطفل الطيور ، حيث يتم وضع شباك على تكعيبة العنب لمنع الطيور مع الحفاظ على نفاذ أشعة الشمس ، ويتخللهما الزرع فيكون محميا من الطيور ومن الرياح ، قال الشعراوي (علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجاً يصدُّ الهواء والعواصف ، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري)[3].

قوله (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ..) (33) جاء وصف الجنتين كدليل على أن الله تعالى تفضل على صاحبهما بالعطاء ولم ينقصه شيئا ، فالأُكُل : هو ما يُؤكل ،"الأُكُل" في لغة التنزيل هو كل ما يُجنى ويُؤكل من ثمار، وفي قوله (آتَتْ أُكُلَهَا) إشارة إلى أن الأرض قد **بلغت ذروة جودها، فاستجابت لجهد غارسها** . أي أن الأرض أعطتْ الثمرة المطلوبة منها وافيةً مستوية

وقوله (وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً . .) فالأرض لا تبخس المحسن إحسانه ، يعني أنها **أعطت الثمار بقدر العمل فيها**، فالأرض –على كونها جماداً– لا تظلم صانعاً، ولا تُضيع أجر عامل، ولا تهدر له كداً أو تعباً؛ بل إن من صفاتها الوفاء والعدل، تقابل الجهد البشري بالجزاء الأوفى.

وقد أشار الشعراوي لسخاء الأرض عندما يحسن العامل فيها ، فمن عدل الأرض وسخائها أنها تأخذ من الإنسان البذرة الواحدة لتثمر آلافاً، وتستقبل الكيلة لتُخرج إردباً، فإذا كان هذا عدل الأرض وسخاؤها وهي مخلوقة، فكيف بتقدير الخالق سبحانه وتعالى وشكره لسعي عباده وتعبهم؟!

فالأرض تُشبه في عطائها وسخائها بالأم الرؤوم؛ فكلاهما يفيض بالخير والمحبة : الأم تجود على ابنها بالرعاية والحنان دون مقابل، بل قد تحنو عليه حتى في حال جحوده وعقوقه. وكذلك الأرض، قد تجود على الإنسان بإنبات ما لم

---

[2]) الدكتور المهندس محمد عبد الهادي الشيخ : دكتوراه في الهندسة الزراعية بفرنسا
https://f.zira3a.net/showthread.php?t=10705
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5404

يزرعه، وإخراج ما لم يتعب فيه، فكيف يكون عطاؤها وإكرامها إذا قابلها الإنسان بالبر، وأحسن التعامل معها حَرْثاً وغَرْساً ورعاية؟ لا شك أنها ستضاعف له العطاء، وتفتح له أبواب النماء.

لكن يجب الفهم إذا كان قانون الأرض يقتضي أن تأتي الثمار على قدر العمل والجهد، غير أن **الاستفادة الحقيقية من هذا الرزق تخضع لقانون رباني آخر وهو "البركة"**؛ فالجهد يضمن وفرة المحصول، لكن البركة هي التي تضمن نماءه ونفعه، ولها شروط ومفاتيح:-

فالرزق الحلال يجلب البركة ، والصدقة تجلب البركة ، وإن لم تكن في صورة صدقة حقيقية ، فلتكن في صورة صدقة مستترة ، أي بالبيع والشراء لكفاية حاجة الناس ، وليس لأجل الاحتكار وظلم الناس ، إن عرض الفائض من الرزق في الأسواق بهدف كفاية حاجات الناس والتيسير عليهم -بعيداً عن الجشع والاحتكار- هو صنيع يبارك الرزق ويُنميه.

وقد علل الشعراوي سبب سخاء الأرض وأنها تعطي عطاء يكفي العاملين فيها وغيرهم ، فيقول (اليد التي تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها ، بل على أكثر من حاجتها ، عملتْ لها وللآخرين ، ولو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته ، فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل؟ إذن : **فعلى أصحاب القدرة والطاقة أنْ يعملوا لما يكفيهم ، ويكفي العاجزين عن العمل**)[4]، فالعمل في المنظور الإسلامي ليس مجرد وسيلة لسد الحاجة الفردية، بل هو رسالة استخلافية ذات أبعاد تكافلية ، ولذلك مدح النبي ﷺ أحد التي تعمل ، فينفق العامل من كسب يده فقال : «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)**[5]

كذلك مدح الذي كان يعمل لأجل أن ينفق على تعلم أخيه أحاديث النبي ﷺ ، وألمح له أنه يرزق ببركة طلب أخيه العلم ، فالعلاقة بين طالب العلم والعامل تكافلية تضامنية في المفهوم الإسلامي الاجتماعي . فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ **لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ)**[6].

قوله (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) (33) إتمام النعمة بتفجير الأنهار خلال الجنتين هو إحكام من الله للابتلاء ، لكي يرى العبد أثر نعمة ربه عليه فيزداد شكرا ، فالبحث عن مصادر الري أمر شاق ، وشق الترق أشق ، ولكن الله يسر على عبده ففجر له نهرا ما بين الجنتين بلا تعب أو مشقة .

فهذا الوصف المتقدم للجنتين يعني أنه لا خوف من تقلبات المناخ وعاديات الظروف. وهذا الإحساس بالأمن والاستقلال قد يغري الإنسان ، فينشأ عنه فكر منحرف يفضي بصاحبه إلى الهلاك ، فيقول لن تبيد بفضل توفر أسباب الحياة..)[7] ، إذ تجلّت عظمة البيان الإلهي في قوله عز وجل (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) ، لتكشف عن ملمحٍ دقيق من ملامح إتمام **النعمة** الربانية، التي **جعلها الله سبحانه ميزاناً لابتلاء** العبد واختبار

---

[4]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5404
[5]) رواه البخاري ج7 ص 235 رقم 1930
[6]) رواه الترمذي ج8 ص 343 رقم 2267 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 345
7) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

شكره؛ فبينما يمثل البحث عن مصادر الري عناءً وجهداً بالغاً، ويغدو شق القنوات والترع كدحاً أشد مشقة وأعظم كلفة، ساق الله إلى عبده رغد الحياة ميسراً هنيئاً، ففجر له نهراً يتدفق بين الجنتين كفاحاً **بلا نصب ولا وصب**.

كما أوضح السياق القرآني أن **صاحب الجنتين لم يتكلف شيئا لكي تؤتي ثمارها** ، بل كل شيء حصل فيها دون جهد منه ، فلم يتكلف نَقِيرًا ولا قِطْمِيرًا لتجود أرضه بعطائها، ولم يبذل قطرة عرق لتؤتي الأرض أكلها؛ بل تهيأ له كل شيء بغير جهد منه.وانسابت النعم إليه رغَدًا دون أدنى كدٍّ أو مجهود. وإنما أنفق نفقة سوف يتحسر عليها فيها بعد .

إذ يقودنا التأمل اللغوي في توزيع الضمائر وإسناد الأفعال في هذه الآيات إلى الكشف عن سرٍّ بلاغيٍّ بديع؛ إذ تجرد الرجل تماماً من أي "فعل" يؤثر في النماء، بدا منزوع الفاعلية تمامًا، عاطلًا عن الحركة والعمل، بينما تتوزع الأفعال في المشهد بين شرف الإيجاد الإلهي وطواعية الأسباب الكونية.

فمن جهة، تبرز ثلاثة أفعال مسندة إلى الله تعالى بضمير العظمة والقدرة" **:جعلنا"، و"حففنا"، و"فجرنا"**، وهي أفعال تدل على الخَلْق والإنشاء والتدبير الرباني للمكان.

ومن جهة أخرى، يبرز فعلان مسندان إلى الطبيعة والأسباب العادية التي خلقها الله **" آتت" و"لم تظلم"**، وهما يفيدان غاية المطاوعة والاستجابة السلسة لمراد الله، دون عوائق أو آفات.

أما الرجل، فقد بقي عاطلاً عن العمل، معزولاً عن أدنى مجهود يؤهله لاستحقاق هذه الملكية، فلا ذكر له في مضمار السعي والشقاء؛ لم يحرث أرضًا، ولم يسقِ زرعًا، ولم يلقَ عناءً. مما يجعل جحوده بعد ذلك قمة في الخسران ونكران الفضل

وطرافة هذا التصوير المعجز تكمن في حصار الرجل بضميرين اثنين فقط: أحدهما في البداية يثبت قيد الملكية ، والآخر في النهاية يثبت تسلّم الغلات والأرباح (وكان له ثمر) .وكأن البيان الإلهي يستحضره في اللحظة الأولى متسلّمًا لزمام الجنتين، ثم يطوي مراحل الزمن والجهد، ليحضره في اللحظة الأخيرة متسلّمًا للمحصول، وما بين اللحظتين دلالة واضحة على ترفٍ ممتد وعطاءٍ مغدق... فكيف لا يكون هذا الرجل إذًا "مدلَّلًا" قد سِيقَ إليه رزقه رغدًا وهو وادعٌ مستريح؟)[8].

وإذا تتبعنا أسرار اللسان العربي في هذا الموضع، نلحظ أن الوصف القرآني للجنتين قد عَمَدَ إلى إبراز معاني "**الاستمرارية**" و"**البقاء**"؛ فغلال الأرض من العنب والتمر مما يقبل الادخار والتخزين، ليتجاوز المرء بهما تقلبات المواسم وعاديات الفصول. وإن أسباب هذه الديمومة قائمة في الجنة، مستقلة بها، تتجسد رأي العين في ذلك النهر المتفجر الخالد. غير أن هذا **الأمن الرغيد والاستقلال الظاهر، قد يتحول في نفس العبد إلى فتنة ومغواة**؛ فيورثه طمأنينة خادعة تفضي به إلى الهلاك، حين يظن – بجهله – أن نعمته لن تبيد بفضل توفر أسباب الحياة المادية من حوله.

هذا الصنيع الإلهي يستنهض في الوجدان الإنساني وعياً عميقاً بضرورة شكر هذه النعمة، عبر السعي الدؤوب لتوفير مصادر المياه للناس كركيزة أساسية من ركائز النماء الزراعي؛ وفي هذا المحمل يقول الإمام العز بن عبد السلام (فجره

8) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

بينهما ليكون أقل مؤنة من سوقه إليهما وأكثر ريعاً)[9]. وهي لفتة تحث الفكر على استشعار الأهمية البالغة لشق الترع والقنوات من الأنهار الفياضة، توسيعاً للرقعة الخضراء، واستدامةً للحياة والنبت طوال فصول العام دون انقطاع.

ولما كان الماء عصب الوجود وأجلّ القربات، عظم الشارع الحكيم شأن بذله وسقياه؛ فقال رسول الله ﷺ **(والشربة من الماء يسقيها صدقة)**[10].

والسقي الماء هو أفضل الصدقات ، فعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ أَنَّهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ الْمَاءُ قَالَ فَحَفَرَ بِئْرًا وَقَالَ هَذِهِ لِأُمِّ سَعْدٍ)[11]، وعَنْه –سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ– قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ **أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ قَالَ سَقْيُ الْمَاءِ)**[12].

قوله (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) الإتيان بالفعل الماضي "كان" إشارة إلى تبدل الحال سريعا ، حيث انقلب حاله من صاحب جنتين وله ثمر من أجود الثمار الصالحة للتجارة بما يدر المال الوفير عليه إلي متحسر ، يقلب كفيه من الحسرة علي هلاكه .

فقد حق له أن يتحسر منذ اللحظة التي اغتر فيها بهذا المتاع الزائل ، ساعة قال لصاحبه (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) متكبرا عليه بنعمة ربه التي رزقه إياها ، يقول النبي ﷺ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) وقال (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)[13]أي احتقار الناس .

وفي قوله (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) دلالةٌ للغراء على أن مخالطة الناس ومحاورتهم باعتبار أن ذلك ركيزةٌ أصيلة من ركائز السلوك الإسلامي .إذ أضفى القرآن الكريم عليهما وصف "**الصحبة**" تنبيهًا على عمق الروابط الإنسانية، فغدا كلٌّ منهما صاحبًا للآخر. وفي هذا التعبير القرآني حثٌّ لطيف على **استحباب اندماج المؤمن في مجتمعه، ومحاورتهم بالتي هي أحسن**، وإن باينوه في سموّ الخلق أو نبل المبدأ.

ويعضد هذا الملمح الإنساني توجيهٌ نبويٌّ شريف يُعلي من شأن الصبر والاحتساب، حيث يقول الرَّسول ﷺ **(المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)**[14] ؛ فالخيرية هنا معقودة بلواء الصبر والمواجهة الإيجابية، حتى وإن قيل بأن بين المنزلتين مرتبة وسطى، إلا أن ميزان الأفضلية يميل يقينًا نحو مَن يمد جسور التواصل ويتحمل في سبيل ذلك المشاق، مقارنةً بمن آثر الانكفاء على الذات واعتزال الناس طلبًا للسلامة وانقطاعًا عن التوجيه والإصلاح[15].

---

[9]) تفسير العز بن عبد السلام ج1 ص 620
[10]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 152 رقم 422 صحيح الأدب المفرد ج1 ص 175
[11]) رواه أبو داود ج4 ص 497 رقم 1431 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص 366
[12]) رواه النسائي ج11 ص 439 رقم 3605 صحيح وضعيف سنن النسائي ج8 ص 237
[13]) رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131
[14]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 140 رقم 388 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 162 رقم 388/300
15) في هذا المعنى : يوسف بن موسى بن محمد، أبو المحاسن جمال الدين الملطي الحنفي : المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص 219

ولا غروَ أن هذا المنهج الدعوي المرن لا يتصادم بحالٍ مع العزلة الإيمانية التي لجأ إليها فتية الكهف؛ فكلا المسلكين—مسلك صاحب الجنتين ومسلك أهل الكهف—يدور في فلك الصواب والحكمة الشرعية؛ بيد أن الفارق يكمن في تقدير المصلحة وحجم المفسدة:

أهل الكهف :ألجأتهم الضرورة القصوى واضطرهم الخوف الشديد على عقيدتهم إلى الفرار بدينهم، بعد أن بلغ السيلُ الزُّبى، وتجاوز الطغيان المدى، فخَشُوا الفتنة والهلاك.

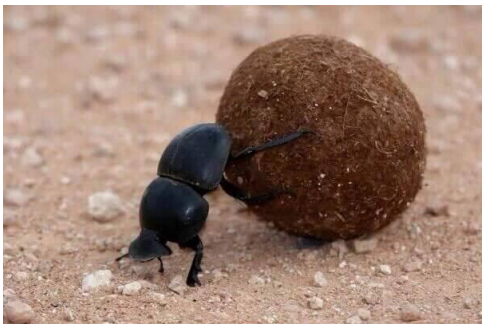
أما المؤمن مخالط صاحب الجنتين :آنس من نفسه قدرةً على الصبر والتحمل أمام الأذى اللفظي والصلف الفكري، فلم يجد في هذا الإيذاء مسوغًا شرعيًا لقطع حبال التواصل، أو التخلي عن أمانة الدعوة والبيان.

في قوله (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) يتشوه المظهر العام بصورة قاتمة من التفاخر المذموم بالثروة والولد، وهي نزعةٌ حرّمها الشرع الحكيم ونأى بالمسلم عنها؛ إذ يقول النبي ﷺ **(لا يَفْخَرْ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)** [16].

إن آفة العُجب وكبرياء النفس من أشد المهالك التي تحبط العمل وتُظلم القلب؛ وقد جاءت الشريعة الغراء بقطع دابر المفاخرة وصون كرامة الإنسان، داعيةً إلى التواضع والاعتراف بفضل المنعم سبحانه.

فليس لمخلوقٍ أن يستطيل بمحاسنه كِبراً، أو يرفع قدر نفسه على الأنام زهواً وعُجباً. **ومَن أعجب بما يملك، فقد وقع في حبائل الغرور، وأبان عن قلبٍ خلا من الشكر، وغفل عن فقه الابتلاء بالنعمة**. وكما أثر عن الأصبهاني قوله :(وليس للمختال في حسن الثناء نصيب، ولا للوالي المعجب بقاء في سلطانه، إنه لا تمام لشيء مع العجب). [17]

فمن جهة وجب تطهير النفوس من عصبية الآباء ومفاخر الجاهلية ، ولقد أولى الشرع عناية خاصة لاستئصال التفاخر بالآباء والأنساب، لكونه مباهاةً بأمادٍ ولّت وأقوامٍ أفضوا إلى ما قدموا وحسابهم على الله. وفي هذا المعنى يقرر الرسول الكريم ﷺ قائلًا:(إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد **أذْهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ**، مؤمِنٌ تَقِيٌّ وفاجِرٌ شَقِيٌّ، أنتُمْ بَنُو آدَمَ وآدَمُ من تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُمْ بأقْوامٍ إنَّما هُمْ فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ من الجِعْلانِ التي تَدْفَعُ بأنْفِها النَّتِنَ)[18].



[16]) رواه مسلم ج14 ص 24 رقم 5109
[17]) أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ج1 ص 166
[18]) رواه أبو داود ج13 ص 320 رقم 4452 وصححه الألباني : صحيح الترمذي 243/3 وحسنه صحيح وضعيف سنن أبي داود 116/11

إن الترياق الشافي من هذا الداء العضال هو لزوم التواضع؛ وقد لخص الإمام ابن القيم حقيقته وجوهره بقوله : **(والتواضع انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة للخلق، حتى لا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل الحقوق للناس عليه)** [19]

وحسماً لكل مادة تؤدي إلى الفخر أو المعايرة، جاء التوجيه النبوي القاطع :**(إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد)**، بل إن النبي ﷺ حذر من مجاراة أهل الطيش في سبابهم حين سُئل عن الرجل يُسَبُّ في الملأ فيردّ مظلمته، فقال عاصماً الألسنة من السقوط :"**المستبّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان**"[20].

وفي سياق صون القلوب من الغرور، حظر الإسلام "التألي على الله" برجم الغيب في مصائر العباد وتزكيتهم بغير علم. وتبرز هذه المعرفة الإيمانية العميقة في حديث أم العلاء رضي الله عنها، حين اختصمت الأنصار على سكنى المهاجرين، فصار عثمان بن مظعون في سهمهم، فمرّضته حتى توفي. فلما دخل رسول الله ﷺ قالت" :رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله"، فبادرها المعلم الأول ﷺ قائلاً: "وما يدريكِ؟" فقالت:" لا أدري والله"، فقال ﷺ :"أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري –وأنا رسول الله– ما يُفعل بي ولا بكم". فقالت أم العلاء إثر هذا الدرس النبوي البليغ" :فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً."[21]

إنَّ تقديمَ وصْفِ الحَالِ بالظُّلْمِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ اللِّسَانُ بِغُرُورِهِ يُؤَكِّدُ أَنَّ الِارْتِكَانَ إِلَى الأَسْبَابِ وَالِاغْتِرَارَ بِهَا هُوَ جِنَايَةٌ قَلْبِيَّةٌ تَعْتَمِلُ فِي دَوَاخِلِ النَّفْسِ أَوَّلًا، قَبْلَ أَنْ تَفِيضَ بِهَا الأَلْسُنُ تَصْرِيحًا. **ما يعني طغيانُ المادَّة وحِجَاب الأسباب** عن نسبة الفضل للمنعم

إذ تتجلى البلاغة القرآنيّة في تقديم الجملة الحاليّة ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ على القول، إيذانًا بأنَّ الانحراف العقدي يبدأ من غفلة الجنان"القلب" قبل فلتات اللسان؛ فالظلم هنا –كما يرى الزمخشري – هو إعجاب المرء بما أُوتِي، واستيلاء طول الأمل والحرص عليه، حتى ران على قلبه الاغترار بالمهلة. وتلك آفةٌ ممتدة؛ لسان حال كثير من المترفين ينطق بها وإن سكتت ألسنتهم[22].

لقد دخل هذا العبد جنته مستندًا إلى حسابات المادّة المحضة، فرأى نخلها المحيط بها كسياج يصد عواصف الرياح، وأعنابها المظللة تحمي زرعه، وأنهارها المتفجرة بالريّ الغمر تغنيها عن تقلبات السماء، فعمي عن تَدَبُّرِ قُدرةِ مُسبِّب الأسباب، وظنَّ أن هذه الحصانة المادية كفيلةٌ بديمومة النعمة وأبديتها، فقال بملء كبره: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

إنَّ هذا لَهو عينُ الكفران بالنعمة والجحودِ بالمنعم؛ إذ غفل عن مقام العبودية الذي يقتضي منه أن يلوذ بمقام: "**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**"، وأن يفزع إلى طاعة ربه مستلهمًا هدي النبوة في سؤال الله الخير كله عاجله وآجله، والاستعاذة من الشر كله، والرضا بالقضاء وجعل عاقبته رشدًا.

---

[19]) فيض القدير ج2 ص 274
[20]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 153 رقم 428 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 177
21) رواه البخاري ج21 ص 388 رقم 6500
[22]) الكشاف ج4 ص 13

وفي قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ فالاغترار بالدنيا يقلل الشفقة من الآخرة ، ويبعد الظن من اقتراب يوم الحساب ؛ ولذلك انتقل السياق ليُعري لوثة فكرية أخرى نشأت عن طغيان الدنيا في قلبه، إذ إن **الاستغراق في شهوات العاجلة يُوهن الشفقة من الآجلة**، ويُباعد في أوهام النفس حسابَ يوم القيامة، وهو يومٌ قريب هـ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.بل هو أقرب إلى أحدنا من شراك نعل كما أخبرنا النبي ﷺ .

ولم يقف طغيانه عند إنكار الميعاد، بل تجاوزه إلى قياسٍ فاسد؛ فظنَّ أن حظوته في الدنيا تدل على كرامته عند الله في الآخرة، وهو الملحظ الذي أشار إليه أبو حيان في **غمط أهل المادة والفلسفة والدهرية لعلوم الأنبياء، واتكالهم على معارفهم القاصرة**[23].

وقد دحض القرآن الكريم هذا التلازم الوهمي بين العطاء الدنيوي والرضا الإلهي في مواضع شتى، مؤكدًا أن النعمة في أيدي الجاحدين ما هي إلا استدراجٌ وإملاء:

- فتنقطع الأسباب العارضة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ..﴾.
- ويتبدد وهم المسارعة في الخيرات: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.
- وتنتفي مظنة القربى بالماديات: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾.
- ويتحول الإمهال إلى زيادة في الإثم والوعيد: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.
- ويأتي الختام بسُنّة الاستدراج الخفيّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

وفي **قوله** (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) تجلت في محاورة العبد المؤمن لصاحبه أسمى آداب النصيحة والدعوة إلى الله؛ إذ بادر بإنكار المنكر والرد على أهل الغرور والكبرياء في حينه، مستعينًا بالتذكير بأصل الخلقة وعظيم قدرة الباري جل وعلا. ونظرًا لأن ادعاء الاستغناء عن الخالق والتقول عليه هو عين الافتراء وأعظم الظلم، فقد توعد الله فاعله بالحرمان من الفلاح، فقال سبحانه: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

وقد تلمس العلماء والمفسرون مناط الإنكار في هذه الآية، فظهر أن كفر صاحب الجنتين وإشراكه قد تلبّس بوجهين [24]:-

الأول :اعتقاده الفاسد بأن الأسباب المادية المؤثرة والمولدة للثمر تنفع وتضر بذاتها، غافلًا عن مشيئة الله وقدرته التي تسيرها.

---

[23]) في هذا المعنى : البحر المحيط ج9 ص 444

[24])

الثاني :استبعاده قيام الساعة ويقين الآخرة، مع توهمه الفاسد بأن حظه في الآخرة مضمون كحظه في الدنيا، بناءً على العطاء المادي الدنيوي.

وعلى الضد من ذلك، يتجلى حال المؤمن الوجل؛ إذ يجمع في قلبه بين إحسان العمل ومخافة العاقبة، مصداقًا للحديث القدسي الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه جل وعلا: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة»[25]. وهذا الوجل الخلاق هو ما درج عليه الصدر الأول؛ فقد نقل ابن أبي مليكة رحمه الله قائلًا: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل»[26]، ويُذكر عن الحسن البصري في وصف الخوف والأمن: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق»[27]، مما يوجب الحذر من الإصرار على المعاصي والنفاق بلا توبة، كما أثنى الله على المتقين بقوله: (وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

أما ما ذهب إليه النيسابوري وغيره في تفسير قوله "أكفرت"، من أن المعنى يؤول إلى مواجهة بالخروج من الملة كأنه قال: "أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد"[28]؛ فإن ميزان أهل السنة والجماعة وقواعدهم الأثرية في باب التكفير والأسماء والأحكام تقتضي التدقيق وعدم المسارعة إلى تكفير المعين. ولعل العدول عن صيغة الإخبار (أنت كافر) إلى صيغة الاستفهام والسؤال (أكفرت؟) جاء مساقًا لفتح باب المراجعة والتوبة، والتثبت قبل إطلاق اللفظ.

والأقرب في توجيه حال صاحب الجنتين وفق السنن الشرعية، أنه شابه من وُصف بالكفر لارتكابه ذنبًا أو فعلًا كفريًا مع بقاء أصل الإيمان، وهو ما يُعرف في اصطلاح السلف بـ "الكفر العملي" أو "الكفر الأصغر". وهذا التوجيه يتسق مع المأثور عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل قوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) إذ قال: «إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكن كفر دون كفر»[29].

وبمثل هذا التفصيل استدل أهل السنة بحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[30]، حيث جُعل القتال كفرًا دون أن يخرج صاحبه من دائرة الإسلام بالكلية.

قال الترمذي في مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ **قِتَالُهُ كُفْرٌ لَيْسَ بِهِ كُفْرًا مِثْلَ الِارْتِدَادِ** ، وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (مَنْ قُتِلَ مُتَعَمَّدًا **فَأَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءُوا قَتَلُوا وَإِنْ شَاءُوا عَفَوْا)** [31]، قالوا (**وَلَوْ كَانَ الْقَتْلُ كُفْرًا لَوَجَبَ)** أي الحد ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٍ وَعَطَاءٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ **قَالُوا كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ وَفُسُوقٌ دُونَ فُسُوقٍ**[32].

وحينما هبَّ الرجل المؤمن لينصح صاحب الجنتين ويعظه، لم يجد أبلغ في قمع كبريائه، وإطفاء نيران غطرسته، من أن يذكره ببدء نشأته وأصل خلقته؛ ليردَّ جموح نفسه إلى التواضع، ويكبح جماع فخره وخيلائه. فذكّره بأن أباه آدم –

---

[25]) تفسير ابي السعود ج4 ص 260

[26]) رواه ابن حبان ج2 ص 406 رقم 640 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 173

[27]) رواه البخاري ج1 ص 81

[28]) تفسير النيسابوري ج5 ص 182

[29]) رواه البيهقي في سننه ج10 ص 207 رقم 21427 واستند العلماء على ذلك كابن تيمية وغيره ورواه الحاكم في المستدرك 342/2

[30]) رواه الترمذي ج9 ص 226 رقم 2559

[31]) رواه الترمذي الحديث السابق ، وكذلك رواه البيهقي في سننه الكبرى ج8 ص 32 رقم 16350

[32]) رواه الترمذي ج9 ص 226 رقم 2559 صححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 135

عليه السلام– أبا البشر جُبل من تراب، فإذا كان الأصل الذي تفرعت عنه البشرية طينًا لازبًا، فإن النسل جارٍ على سنّة أصله، مستمد من مادته؛ إذ تتقلب الأطوار بالمرء من نطفةٍ ممتزجة تنطلق في رحم الأنثى، لتستحيل جنينًا، ثم وليدًا يرضع، فطفلاً يدرج، ثم شابًا يافعًا، حتى يبلغ أشده ويسويَّ رجلاً كامل العقل والرشد.

فأين يذهب المرء بنفسه؟ وهل يليق بمن هذه مسيرته، وتلك أطواره، أن يجحد نعمة ربه، أو يشرك به سبحانه، أو يتعاظم ويتفاخر بما أوتي من عرض الدنيا الزائل؟ إنما كان هذا الوعظ البليغ ليوقظ قلبه الغافل، فيحمله الذكر على الفكر، ويفضي به الفكر إلى السكينة والتواضع، وينأى به عن دركات الشرك والظلم؛ مصداقًا لقوله جل في علاه: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)، وتحقيقًا لما جرى به البيان النبوي الشريف في قوله ﷺ (وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ)[33] وفي رواية (أنتم بنو آدم وآدم من تراب) [34]

فيا عجبًا لآدمي يغتر بماله وجاهه! وأوله نطفة مَذرة، وآخره جيفة قَذرة، وهو بين هذا وذاك يحمل في جوفه العَذِرة!

ويقول العتيبي (خلقت يا ابن آدم من تراب .. فسبحان من يجعلك بعد الموت تُدخل في التراب) [35] .

علامَ التّكبّر يا ابن التّرابْ أبِالجاهِ..بالمالِ..أم بالثّيابْ
وتزعمُ أنَّكَ تملكُ فخراً تحلّقُ فيهِ لأعلى السحابْ
فَطِرتَ بوهمكَ دونَ جناحٍ ولاحقتَ طيفاً بدا من سرابْ
وزادكَ كبراً نفاقُ أناسٍ أروكَ بأنّكَ فيهم مُهابْ
أضعتَ حياتكَ خلفَ خيالٍ إلى أن كبرتَ وشعركَ شابْ
وشمسكَ حتماً ستغربُ يوما بدونِ شروقٍ سيتلو الغيابْ
وسوفَ تموتُ فكيفَ ستلقى إلهاً عظيماً شديدَ العذابْ
فهلّا ارعويتَ فعمركَ يمضي وقد فازَ من للإلهِ أنابْ[36]

إذ يتمحور المعنى الموضوعي الذي استظهره الشاعر في هذه الأبيات حول حقيقة الكبر الزائف، والتحذير من الاغترار بمتاع الدنيا الفاني، ودعوة الإنسان المخطئ إلى الإنابة والرجوع إلى الله قبل فوات الأوان.

فقد استهل الشاعر قصيدته بوقفة توبيخية واستفهام يحمل في طياته التعجب والإنكار، مخاطبًا هذا الإنسان المتكبر ومذكّرًا إياه بأصله الطيني الضعيف؛ فمن أي أبواب المظاهر يتسلل إليك العجب؟ أبحطام مالٍ فانٍ، أم بجاهٍ زائل، أم بثياب بهية تبلى مع الأيام؟ إنها لخلة عجيبة أن يرى المرء نفسه في علياء الفخر، ظانًا أنه يحلق بزهوه فوق هام

---

[33]) رواه الترمذي وصححه الألباني سبق تصحيحه
[34]) رواه أبو داود ج13 ص 320 رقم 4452
[35]) أحمد خالد العتيبي : صيد الفوائد ، http://saaid.org/rasael/792.htm
عندما تولد يؤذن فيك من غير صلاة .. وعندما تموت يصلى عليك من غير أذان..
عندما تولد لا تعلم من الذي أخرجك من بطن أمك .. وعندما تموت لا تعلم من الذي حملك على الأكتاف..
عندما ولدت تغسّل وتنظّف .. وعندما تموت تغسّل وتنظّف..
عندما تولد يفرح بك والديك وأهلك .. وعندما تموت يبكي عليك والديك وأهلك..
خلقت يا ابن آدم من تراب .. فسبحان من يجعلك بعد الموت تُدخل في التراب..
عندما كنت في بطن أمك كنت في مكان ضيّق وظلمة .. وعندما تموت تكون في مكان ضيّق وظلمة..
عندما وُلدت يغطى عليك بالقماش لكي يستروك .. وعندما تموت تكفن بالقماش لكي يستروك..
عندما ولدت وكبرت يسألك الناس عن شهادتك وخبراتك .. وعندما تموت لا تسأل إلا عن عملك الصالح فقط..
[36]) د وائل جحا : بوابة الشعراء https://poetsgate.com/index.php

السحاب، بينما هو في الحقيقة يطير بأجنحة من وهم وخيال، ويركض خلف طيف خادع لا يعدو أن يكون سرابًا يحسبه الظمآن ماءً.

ثم ينتقل الشاعر ليوضح سبب تمادي هذا الإنسان في طغيانه، فيعزوه إلى نفاق المحيطين به الذين يزينون له الباطل، ويوهمونه كذبًا وزورًا بأنه مهاب الجانب وعظيم الشأن، فأضاع المسكين زهرة حياته يلهث خلف هذا الخيال الخادع، حتى انقضى العمر بغتة، واشتعل الرأس شيبًا دون أن يدرك حقيقة وجوده.

وفي ختام الأبيات، يقرع الشاعر جرس الإنذار مذكرًا بالنهاية الحتمية لكل حي؛ فشمس العمر آذنت بالرحيل، وستغرب يوماً غربةً لا شروق بعدها في هذه الدنيا، ليجد الإنسان نفسه في مواجهة الموت الذي لا مفر منه. وهناك، في ساحة الحق، سيقف عاريًا من ماله وجاهه ليقهر بعجزه أمام إله عظيم شديد العقاب. وينتهي هذا العرض المؤثر بدعوة حانية مشفقة: أما آن لهذا القلب المقيد بالغرور أن يستفيق ويزدجر؟ فالعمر يمر مر السحاب، والسعيد الفائز حقًا هو من أسرع بالرجوع والندم، وأناب إلى رب العباد مستغفرًا تائبًا.

قوله (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) (38) عبارة تدل على التبرؤ من صنيع صاحب الجنتين ، وإقرار بالوحدانية لله تعالى ، فحين تميل النفوسُ مع الغرور وتطغى على البصائر نشوةُ النعم، يقفُ العقلُ السويُّ ليقطعَ حبالَ الأوهام، ويهزّ جذعَ اليقين، ناطقاً بكلمة التوحيد الخالصة :(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) معتزا بدينه ، متنزها عن أي قيمة أرضية .

قال السيوطي أصل "لَكِنَّا" "لَكِنْ أَنَا " ، وَالْمَعْنَى أنا لا أقول مثل قولك ولكن (أَنَا أَقُول هو الله ربي)[37] ، إنها "لكنِ" الاستدراك التي تُقيمُ الفارقَ السحيقَ بين من تعلقَ بالتراب وظنّ أسبابه أبديّة، وبين من تعلق برب الأسباب. فكأنَّ القائلَ في إعلانه الباذخ يقول" :لستُ كمن رأى زهرَ جنّته فظنَّ أنه باقٍ لا يزول، ولا كمن استشعر القوة في كَفِّهِ فنسيَ مُسديَ النعمة؛ أنا أعترفُ، وأشهدُ، وأُسْلِمُ: هو الله.. لا شريكَ له في مُلكه، ولا ندَّ له في ربوبيته."

وذلك هو السرُّ الدفين في التخصيص والتقديم؛ فالكبرياء مرضُ القلوب إذا استشرى، أفضى بصاحبه —حين يغترُّ بحولِه وقوّتِه— إلى شركٍ خفيّ، أو جحودٍ جليّ، يوم يظنُّ أن الحارسَ لجنتِه هو الجدار، وأن الباقيَ لملكه هو سعيُه، لا فيضُ خالقه. وحينئذٍ يأتي النداءُ الإلهيُّ الصارم ليقررَ قاعدةَ القبول والاصطفاء (**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ**)[38].

فالعملُ الصادقُ الخالص لله هو ذاك الذي لم يشُبه التفاتٌ إلى عيونِ الخلق، ولم يتدنّس بمنٍّ أو أذى؛ إذِ الرياءُ شركُ الخفيّات، والمنُّ مفسدُ العطايا، والكفرُ العمليُّ —حين يُستباحُ فيه حدودُ الله— ربما جَرَّ صاحبه في غفلةٍ من حيث لا يشعرُ إلى شفا الهلكة، إن لم يتداركه عفوُ الله.

فيا من أُوتيتَ من حطام الدنيا شيئاً، أو رُزقتَ من زينة الأرض قبساً: اخلع نعلَ كبريائك على أبوابِ النِّعم، وتذكَّرْ أن الذي أبدعَ البداياتِ قادرٌ على إرجاعها إلى العدم، وأن العبودية الحقَّة لا تليقُ إلا بقلبٍ لا يرى في الوجودِ أحداً يستحقُّ الإجلالَ سوى الله.

---

[37]) تفسير الجلالين ج5 ص 189 نُقِلَتْ حَرَكَة الْهَمْزَة إِلَى النُّون أَوْ حُذِفَتْ الْهَمْزَة ثُمَّ أُدْغِمَتْ النُّون فِي مِثْلهَا

[38]) رواه مسلم ج14 ص 254 رقم 5300

إنَّ التلازم بين ظواهر الأعمال وبواطن الاعتقادات في أبواب الدين ليس مطردًا على نسقٍ واحد، بل هو محكومٌ بحقائق التشريع ومنازل الأفعال.

فمن جهةٍ، **لا يلزم من تلبُّس العبد بالشرك العملي –كالرياء ويسير التصنع – أن يكون مشركًا في أصل اعتقاده،** بل قد يجتمع في قلب العبد أصل الإيمان الفطري مع عوارض النفاق العملي. **ومثلما لا يسلبه الشرك العملي إيمانه بالكلية، فإنه لا ينتفي عنه كذلك أن يكفر اعتقادًا ويخرج من الملة لكونه قد اقترف كفرًا عمليًّا؛** إذ إنَّ **من الأعمال ما جُعلت قرينًا لزوال أصل الدين وهدم ركائزه.**

إنَّ العمل مرآةٌ قد تعكس عارضًا من عوارض المعصية لا يقدح في أصل اليقين، وقد تكون هي النواة التي تنبئ عن زوال حقيقة الإيمان بالكلية؛ فالأعمال في ميزان الشريعة طرائق شتى، منها ما يخدش كمال الإيمان الواجب، ومنها ما يهدم صرح الدين من القواعد، وبذا استقام منهج أهل السنة وسطًا بين الغلو والجفاء.

فالآية تفيد بأن العُجب إذا وصل بالإنسان إلى التفاخر والتباهي أصابه بالتكبر والغرور ، وهذا الخُلق المذموم قد يوصل بصاحبه أن يكفر بنعمة ربه عليه ،وهذا كفر عملي ، لكن صاحبه قد يصل بالشرك العملي إلى كفر اعتقادي ، وذلك عندما يظن أن الأسباب قادرة على حفظ جنته فيعظمها ولا يعظم خالق الأسباب .

وبين إفراط الغلاة وتفريط الجفاة، ينهض ميزان أهل السنة والجماعة في قضايا الإيمان والكفر حاكمًا بالعدل، ومستبيًّا مواضع الزلل التي تاهت في شعابها الأفهام؛ ليخطّ الشيخ حسن أبو الأشبال معالم هذا التمايز بعبارات قاطعة ومحاكمة علمية رصينة. فالقول في الكفر يقع على شطرين:-

الكفر الاعتقادي :وهو ما استقر في وِجدان المرء وانطوت عليه سريرته من جحود وتكذيب، فهذا مخرجٌ من الملة بغير مراء، ومُحبطٌ للعمل بقاطعِ صريحِ الوحي، وعنده يزول أصل الإسلام بالكلية.

الكفر العملي :وهو مكمن المزلّة ومفترق الطرق بين السَّنَن والبدعة، وبيت القصيد الذي باينت فيه السُّنَّة سائر النِّحَل.

فقد توهّم طوائف من الناس أن الكفر العملي كتلة واحدة لا ينفذ منها صاحبها إلى الخروج من ربقة الإسلام مطلقًا، فجعلوا كل عملٍ بمجرده "كفرًا دون كفر" لا يسلب صاحبه اسم الإسلام؛ وفي هذا لَبْسٌ عريض، وغفلة عن حقائق الشرع.

إن الميزان الدقيق في "الكفر العملي" يقتضي سَبْرَ غَوْرِ العمل ونوعه:

عملٌ يهدم أصل الدين :وهو كل فعلٍ نضح بالكفر نصاً أو إجماعاً (كالسجود للصنم أو الاستهانة بالمصحف)، فهذا كفرٌ عمليٌّ ينقلب بصاحبه إلى مروقٍ تام من الملة، وإن لم يصحبه جحود قلبي.

عملٌ يقدح في الإيمان الواجب :فإنها لا ترفع أصل الإسلام، بل ترفع كماله الواجب، ويبقى صاحبها في دائرة الإسلام تحت الوعيد والمشيئة , وهي الذنوب التي شرع فيها الإسلام حدوداً وزواجر (كالزنا، والسرقة، والقتل، وشرب الخمر)، فهذه المعاصي وإن سُمِّيَت في بعض النصوص كفراً ، فهي التي يقصد منها كفر دون كفر .

وعليه؛ فإن نفي الإيمان في نصوص الوعيد إنما يتوجه إلى الإيمان الواجب -الذي بتركه يستحق العبد العقاب-، لا إلى الإيمان الكامل -الذي يتعلق بالمستحبات والمندوبات-؛ فمن ترك الواجبات وارتكب الكبائر فقد نقص إيمانه الواجب، ومن ترك المستحبات فقد فاته الإيمان الكامل المستحب)[39].

هذا الميزان القائم على القسط، والبعيد عن شطط المرجئة وغلو الخوارج، هو عينه الغيث الذي أفاض ببيانه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إذ أقام عليه صرح مجلده السابع من "الفتاوى"، فجاء مَسْطوراً من فاتحته إلى خاتمته في تحرير مسائل الإيمان والكفر، وضبط مناطاتها برباط العلم المتين وهدي الوحي المستبين

قوله (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) قال ابن كثير (هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك) [40]، و(استدل أهل السنة بالآية في أنه لا يدخل في الوجود شيء إلا بأمر الله ومشيئته)[41] ، قال أهل اللغة (الحول الحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى)[42] .

والحوقلة تعني أنه لا يكون في كونه إلا ما أراد ولا يكون في هذا الكون شيء إلا ويعلمه"، (والتيقن بذلك يؤدي إلى حسن التوكل على الله وحسن الاستعانة بالله كما تؤدي إلى تخلية القلب من القبيح والتحلي بالحسن من الأخلاق كما تؤدي إلى التسليم والرضا)[43] .

قال ابن تيمية (وَقَوْلُ " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ " يُوجِبُ الْإِعَانَةَ ؛ وَلِهَذَا سَنَّهَا النَّبِيُّ ﷺ إذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ : " **حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ** . فَيَقُولُ : الْمُجِيبُ : **لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ** فَإِذَا قَالَ : **حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ** قَالَ الْمُجِيبُ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ") أي لا طاقة لنا ولا حول ولا قوة للنهوض والقيام للصلاة إلا بحول الله وقوته .

وَقَالَ الْمُؤْمِنُ لِصَاحِبِهِ : (وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ) وَلِهَذَا يُؤْمَرُ بِهَذَا مَنْ يَخَافُ الْعَيْنَ عَلَى شَيْءٍ ، فَقَوْلُهُ : مَا شَاءَ اللَّهُ . تَقْدِيرُهُ : **مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ** ، فَلَا يَأْمَنُ ؛ بَلْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ ، وَيَقُولُ : لَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَّهِ ، **وَهِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ** " و" الْكَنْزُ " مَالٌ مُجْتَمِعٌ لَا يَحْتَاجُ إلَى جَمْعٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا **تَتَضَمَّنُ التَّوَكُّلَ وَالِافْتِقَارَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى** ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَكُونُ شَيْءٌ إلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ مِنْهُمْ شَيْءٌ إلَّا مَا أَحْدَثَهُ اللَّهُ فِيهِمْ ، قَالَ تَعَالَى (**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) ، فَإِذَا انْقَطَعَ طَلَبُ الْقَلْبِ لِلْمَعُونَةِ مِنْهُمْ وَطَلَبَهَا مِنْ اللَّهِ فَقَدْ طَلَبَهَا مِنْ خَالِقِهَا الَّذِي لَا يَأْتِي بِهَا إلَّا هُوَ ، ففِي الْأَثَرِ (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ**) [44].

---

[39]) حسن أبو الأشبال الزهيري : شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة ج 7/39 https://shamela.ws/book/37436/770

[40]) تفسير ابن كثير ج5 ص 158

[41]) تفسير النيسابوري ج5 ص 182

[42]) تحفة الأحوذي ج9 ص 301

[43]) https://www.elbalad.news/5510140

[44]) مجموع الفتاوى ج13 ص 326

وقال (افْتَرَقَ النَّاسُ هُنَا أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ لَا يَعْبُدُونَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ ، وَصِنْفٌ يَقْصِدُونَ عِبَادَتَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا حَظَرَ لَكِنْ لَمْ يُحَقِّقُوا التَّوَكُّلَ وَالِاسْتِعَانَةَ فَيَعْجِزُونَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ وَيَجْزَعُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَصَائِبِ ، ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُكَذِّبُ بِالْقَدَرِ وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ هُوَ الْمُبْدِعَ لِأَفْعَالِهِ ؛ فَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَسْتَعِينُونَهُ وَلَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ صَلَاحَ قُلُوبِهِمْ وَلَا تَقْوِيمَهَا وَلَا هِدَايَتَهَا ، وَهَؤُلَاءِ مَخْذُولُونَ كَمَا هُمْ عِنْدَ الْأُمَّةِ كَذَلِكَ ، وَقَوْمٌ -صنف ثالث- يُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ قَوْلًا وَاعْتِقَادًا ؛ لَكِنْ لَمْ تَتَّصِفْ بِهِ قُلُوبُهُمْ عِلْمًا وَعَمَلًا كَمَا اتَّصَفَتْ بِقَصْدِ الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ ؛ فَهُمْ أَيْضًا ضُعَفَاءُ عَاجِزُونَ ،وَصِنْفٌ - رابع- نَظَرَ إلَى جَانِبِ الْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُعْطِي وَالْمَانِعُ وَالْخَافِضُ وَالرَّافِعُ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِمْ التَّوَجُّهُ إلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ وَالِافْتِقَارُ إلَيْهِ لِطَلَبِ مَا يُرِيدُونَهُ فَهَؤُلَاءِ يَحْصُلُ لِأَحَدِهِمْ نَوْعُ سُلْطَانٍ وَقُدْرَةٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ وَقَهْرٍ لِعَدُوِّهِ ؛ بَلْ قَتْلٍ لَهُ وَنَيْلٍ لِأَغْرَاضِهِ ؛ لَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُمْ ؛ فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى ؛ بَلْ آخِرَتُهُمْ آخِرَةٌ رَدِيَّةٌ

قال رسول الله ﷺ **(إذا رأى أحدكم من نفسه و أخيه ما يعجبه فليدع بالبركة فإن العين حق)** [45]. فهذا البيان النبوي يضابط خطرات القلوب ولحظات العيون، ليرتقي بالإعجاب البشري من مظنة الأذى إلى سمو الدعاء. من خلال مراعاة الآداب التالية : –

أولاً: إشراقة الاستحسان وتدفق النعمة

فعند تقليب النظر في ملكوت النعم، قد تقع العين على بهاءٍ يسلب اللب؛ إما في مرآة الذات (صحةً، أو مالاً، أو ولداً)، أو في ساحة الأخوة ، يشير الحافظ ابن حجر في فتح الباري إلى أن **الإعجاب بالنعمة جبلّة بشرية**، لكن النفس قد يتداخلها استحسان مشوب بـ "انبعاث نفسيّ" لا يقصد الأذى ابتداءً، لكنه قد يحمل في طياته سموماً خفية إذا خَلا من ذكر المنعم [46].

ثانياً: ترياق التبريك وحصن النماء

فقوله ﷺ «فليدع بالبركة» توجيه نبوي بالاستعانة بهذا الترياق الإلهي الذي يطفئ لظى الوهج النفسي. فالدعاء بالبركة (كقولك: اللهم بارك له فيه، أو تبارك الله) فهو إعجامٌ لشره العين وإطفاءٌ لشررها؛ لأن العبد بدعائه يربط النعمة بواهبها، ويمزج إعجابه بالرضا والتسليم، فتنقلب النظرة الجارحة إلى غيمة حانية تمطر نماءً وزكاة.

يؤكد **الإمام النووي** أن (هذا الأمر النبوي يحمل في طياته شحذ المروءة، وتصفية القلوب من الكدر؛ بحيث يصبح المسلم حصناً لأخيه لا سهماً يرميه، فيتحول الثناء المجرد إلى دعاء متصل بالسماء) [47]

وتلمح النصوص هنا إلى لفتة لطيفة؛ وهي أن الإنسان قد يحسد نفسه وماله إذا تملكه العُجب وغاب عنه الشكر، فكان التوجيه النبوي بالدعاء بالبركة **شاملاً لحماية الإنسان من نفسه ومن غيره** .

ثالثاً: حقيقة السهم المستتر

فقوله ﷺ "فإن العين حق" جاء خاتمة كالبرق في حسم الحقيقة؛ تأكيد صريح لا يدع مجالاً للمراء بأن للعين أثراً حقيقياً يخرق الأسباب المادية بإذن الله وقدره.

يفصل **الإمام المناوي** في كنه هذا الأثر، مبيناً أن "العين حق" تعني أن الله سبحانه أجرى العادة بخلق مسببات وتأثيرات خفية عند التقاء النظرات المعجبة بالشيء دون تبريك، تماماً كأثر السموم والأرواح الخبيثة، وهي لا تؤثر بذاتها بل بأمر الله وقضائه)[48].

فالحديث يثبت الأثر الغيبي للعين رداً على الماديين، وفي الوقت نفسه يسلبها سلطة التأثير المستقل، ليربط كل شيء بمشيئة الله .

إن هذا الحديث الشريف يرسم للمجتمع المسلم **لوحة أمانٍ نفسية وأخلاقية؛** فهو يهذب غريزة التطلع، ويحول نظرة "العين" من سهم قاتل إلى دعاءٍ واصل. إنه يعلمنا أن سلامة الصدور تبدأ من انطلاق الألسنة بالدعاء بالبركة

---

[45]) رواه الحاكم ج4 ص 240 رقم 7499 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 71 رقم 2572
[46]) فتح الباري ج10 ص 205
[47]) شرح مسلم للنووي ج14 ص 171
[48]) فيض القدير ج6 ص 168 التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 308

للآخرين، لتبلغ الأمة مرامها من قوله ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[49]"، فتغدو النعم مشاعة بالبهجة، محروسة بالبركة، مصونة من غوائل الأذى .

ولالتزام الذكر والحوقلة فوائد جمة منها :-

- أنه سبيل غفران الذنوب جميعا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِلَّا **كُفِّرَتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**)[50]

- وأنه سبيل للوصول غراس الجنة مباشرة ، فعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ أكثروا من غراس الجنة فإنه عذب ماؤها طيب ترابها فأكثروا من غراسها قالوا يا رسول الله **وما غراسها** قال (ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله)[51]

- وأنه سبيل للوصول إلى أغلى شيء في الجنة ، فهو كنز من كنوزها ، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ لِي يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ **فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ** أَوْ قَالَ أَلَا أَدُلُّكَ بِهِ)[52]

قال العلماء (سبب ذلك أنها كلمة **استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئا في الأمر**) [53]

وقال الصنعاني أي (أن ثوابها مدخر في الجنة وهو **ثواب نفيس** كما أن **الكنز أنفس أموال العباد** فالمراد مكنون ثوابها عند الله لكم وذلك لأنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله واعتراف الإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئا من الأمر والحول والحركة والحيلة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله)[54] .

قوله (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) (39) فهو بذلك القول يلقي باللوم عليه . أن نظر له نظرة استحقار له ، واستصغار لشأنه ، وتكبر عليه ،قال البغوي معناه: (إن ترني أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت علي) [55] ، قال الخازن (أي لأجل ذلك تكبرت علي وتعظمت)[56] ، أي لا تتعاظم علي لأنني أقل منك مالا وولدا ، لأن محل الفخر ليس بالمال ولا الحسب والنسب والأولاد ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)[57].

---

[49]) رواه مسلم ج1 ص 158 رقم 64
[50]) رواه الترمذي ج11 ص 363 رقم 3382
[51]) رواه أحمد في مسنده ج48ص45 رقم 22450 ، كنز العمال 1/ 252حديث رق 3949 ، والبيهقي في شعب لإيمان ج1ص443 رقم 657 ، وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 116 رقم 1584
[52]) رواه البخاري ج22 ص 385 رقم 6838
[53]) تحفة الأحوذي ج9 ص 301
[54]) سبل السلام ج4 ص 218
[55]) تفسير البغوي ج5 ص 172
[56]) تفسير الخازن ج4 ص 312
[57]) رواه مسلم ج12 ص 427 رقم 4651

فالمسلم لا يستشعر نقصا في نفسه لقلة ما بيده من مال ، وما حوله من ولد ، بل يستشعر العزة بدينه ، والقوة من معية الله له ، فكأنه أراد ألا يكون سببا في فتنة صاحب الجنتين ، فنبهه على خطورة التفاخر بالمال والولد ، وأراد أن يتحلل من إثمه بنصيحته ، فلا يستصغره ولا يحقره ، إشفاقا على خصمه من أن يلج النار بسببه ، وتبرأ من إثمه ألا يكون قد وعظه وتركه على هذا الحال من الضلال ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)[58].

قوله (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) استظهار لطمع المؤمن في فضل الله ، وجواز سؤال ربه من خيري الدنيا والآخرة . لينتفع به ويتصدق طالما أنه يستشعر الفضل ويصل الطلب بالشكر ، فالمؤمن يطمع أن يرث ما قد يستخلفه الله عليه ليستعمله في شكر المنعم كما في قوله (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (الأعراف 128) ، وكقول يوسف (**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ** إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(يوسف 55) .

فهو لم يطلب من ربه جنة مثل جنتي صاحبه ، وإنما سأل الله أن يعطيه جنة خير من جنته لأمرين :-

الأول إذا كان يطمع في شيء من الدنيا فذلك من باب تحمل المسئولية ، وذلك يتفق مع قواعد الاستخلاف والاستبدال كما في قوله (**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**) (الدخان/28) ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ بَلَى يَا رَبِّ وَلَكِنْ **لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ**)[59] ، قال السندي أي : (فلا أطلبه من حيث إنه مال فإنك قد أغنيتني عنه من هذه الحيثية بل **أطلبه من حيث إنه من بركاتك** ، ولا غنى بي عنه من هذه الحيثية)[60]، هذا إن كان محل السؤال لأجل شيء من الدنيا.

ومن جهة أخرى فإن أصحاب الآخرة مشغولون بها ، كقوله (**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (القصص/83) ، فإذا سألوا خيرا من الدنيا فإنه بقدر استعماله في طاعة الله لينالوا بذلك جزاؤهم في الآخرة ، فيكون بذلك **محل الطلب حقيقةً شيئا من الآخرة** .

ويستبعد أن يطلب شيئا من الدنيا لأجلها وحسب ، لقوله ﷺ (**مَنْ رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ هُوَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا يَزْدَرِيَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ**)[61]

فالشغل الشاغل لأهل الحق هو خيري الدنيا والآخرة ، لأجل تطويع الدنيا لنيل مرضاة الله في الآخرة ، ومن قبيل ذلك كذلك الالتزام بسنة النبي ﷺ القولية ، فقد كان يقول (**اللهم اني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت**

---

[58]) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650
[59]) رواه البخاري ج11 ص 186 رقم 3140
[60]) حاشية السندي على صحيح البخاري ج1 ص 67
[61]) رواه الترمذي ج6 ص 421 رقم 1702 ضعفه الألباني

منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك مما سألك به محمد وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشدا)[62].

ألمحت الآية الكريمة إلى جواز معاملة المتكبر بمثل كِبره، مع فارقٍ جوهريّ في الدوافع والغايات؛ فبينما يتكبر العاصي عُجبًا وخُيلاءً بعرَضٍ من أعراض الدنيا الزائلة، يتسامى المؤمن فوق أهل الكبر اعتزازاً بالله تعالى وثقةً بنصره، مستعلياً بإيمانه في هذا الموقف بالذات، دون أن يستشعر في نفسه خيريّةً ذاتية عليه، أو يغتر بظاهر حاله فيحتقر غيره، أو يقطع لنفسه بحسن العاقبة؛ إذ لا يعلم الخواتيم إلا الله، وقد قال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

فليس في ذلك من الكبر المذموم شرعا ، بل هو مظهر من مظاهر الاستعزاز بالله والانكسار له وحده، لا سيما في مواجهة من يستقوي بماله أو سلطانه على عباد الله ، فالعزة المحمودة حين تكون لإظهار القوة والأنفة أمام المتجبرين والمتكبرين لكسر شوكتهم وردع غرورهم، وقد نصّ العلماء على أن التكبر على المتكبر صدقة ، وامتثلوا لقول الشاعر:

وَإِذا جَهِلْتَ عَلى الجَهولِ فَحَسْبُكَ المِجْدُ المؤَثَّلْ ... وَإِذا بُليتَ بِشامِتٍ كُفْرٍ فَكَبِّرْ ثُمَّ كَبِّرْ وقيل قديماً: "الكبر على المتكبر تواضع ".

فالمؤمن لا ينكسر لفقره، ولا يخضع لتعالي صاحبه، بل يستقوى بالله وحده، ولذلك جاء الردّ هنا عليه مفعما بالثقة والعزة ، متوسلاً برجاء الله تعالى واليقين بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن زوال ما عند المتكبر قريب هين على الله.

فقد قابل المؤمن افتخار صاحبه بالمال والجاه بالتسليم لله واللجوء إليه (لكنا هو الله ربي) ، واثقاً بأن الله قادر على أن يعوضه خيراً في الدنيا أو يخبئ له الأفضل في الآخرة، وهو درس في عدم الخضوع لأصحاب النفوذ الدنيوي حين يطغون.

فهذه الآية أصل في تعزز أهل الإيمان بالله وطاعة الرحمن في مقابل ذلة الكفر والطغيان، فالمؤمن لا ينبغي له أن يهن ولا يحزن لقلة حظه من الدنيا أمام استعراض المتكبرين لثرواتهم.

وفي هذا المعنى يؤكد ابن القيم أنه حين يتغلغل في قلب المؤمن نور "المنة"، ويستشعر الوجدان معنى اسم الله "المنان"، عندئذٍ، يقف العبد على عتبة الافتقار التام لمولاه، ناظراً بقلبه إلى" سبق فضله "الذي غمره قبل كل حركة وعمل؛ فينقشع عنه كل غرور، وينقطع تماماً عن الالتفات إلى أي حول أو قوة أو حال ينسبه إلى نفسه

فالعبد الفقير الحقيقي، يشغله رؤية منة مولاه وفضله السابق عن أي حال يرجو فيها لنفسه عِزّاً أو شرفاً

أما من انشغل المرء برؤية "حاله" أو استعراض مقامه، فإنه ينفصل عن مشاهدة عزة مولاه وفاطره، وغاب عن ملاحظة عظمة صفاته سبحانه. فصاحب "الأحوال" العارضة، إذا استغرقه إعجابه بنسكه أو مقامه، حجبته عزة نفسه عن شهود عزة مولاه[63] .

---

[62]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص222 رقم 639 وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد ج1ص243

[63]) طريق الهجرتين ج1 ص 50

كما قرّر الإمام ابن القيم في كتبه (مدارج السالكين وروضة المحبين) أن العزة الحقيقية مستمدة من عبودية الله وحده، وكلما استغنى القلب بالله، انكسرت أمامه أطماع الدنيا وزخارفها، وأن من أعظم آفات القلوب التذلل لأصحاب الثروات والسلطان على حساب الدين والكرامة

فقال في "**المفسد الثالث: التعلق بغير الله تبارك وتعالى، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق؛** فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وَكَله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به... ومَثَلُ المتعلق بغير الله: كمَثَل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وهو أوهن البيوت" [64]

كما فصل ابن القيم في كتاب الفوائد بين التواضع المحمود والذل المذموم الذي يقع فيه من يتذلل لأصحاب الجاه والمال، موضحاً أن العزة الحقيقية هي الاستغناء بالله ، فمن كان في خلقه التواضع المحمود **:أعز نفسه بالطاعة، ورفعها بالاستغناء بالله عن خلقه؛** فلم يتذلل لأصحاب الثروات والسلطان تذللاً يضع من قدره، بل جعل ذله وانكساره كله لله عز وجل)

فقال – نصا – في بيان هذه التفرقة بين التواضع والمهانة (**التواضع** وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقا بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله وهذا خلق إنما يعطيه الله عز و جل من يحبه ويكرمه ويقربه

أما تواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله **ضعة** لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة)[65] .

كما أشار الإمام ابن تيمية في مواضع متفرقة من مجموع الفتاوى إلى أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المؤمن مأمور بأن يقابل المتكبر بعزة وثبات، لئلا يكون سبباً في تمكين أهل الباطل من طغيانهم. واستشهد بقوله تَعَالَى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) . وقال (**فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَهُوَ الْأَعْلَى كَائِنًا مَنْ كَانَ**)[66]

كما ذكر العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس أن عبارة (التكبر على المتكبر حسنة وفي لفظ صدقة)، هي نقل القاري عن الرازي ، لكن معناه مأثور[67] ، وقيل ليس الكبر حينئذ كبراً بل **سمي تكبراً من باب المشاكلة** فحسب[68].

وقال صاحب كتاب بريقة محمودية (**التكبر على المتكبر صدقة**)[69]، لأنه إذا تواضعت له تمادى في ضلاله وإذا تكبرت عليه تنبه)[70].

وأكد الشيخ ابن عثيمين — في شرحه لرياض الصالحين – وغيره من المعاصرين مراراً أن من حق المؤمن بل من واجبه ألا يظهر بمظهر المذلة أمام من يتطاول عليه بماله أو جاهه، بل يتسلح بالإيمان والعزة التي أعزّه الله بها.

---

[64]) مدارج السالكين ج1 ص 458
[65]) الروح ج1 ص 234
[66]) مجموع الفتاوى ج3 ص 252
[67]) كشف الخفاء ج1 ص 313
[68]) فتاوى الشبكة الإسلامية ج10 ص 3027
[69]) اللباب في علوم الكتاب ج8 ص 6 تفسير الرازي ج7 ص 248 أسنى المطالب ج1 ص 116
[70]) برقية محمودية في شرح طريقة محمودية ج3 ص 176

ومن الأدلة الشرعية المؤيدة لوجوب الاستقواء بالله والعزة في وجه المتكبرين قوله تعالى (**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)(المنافقون8) فالعزة حق حصري لله ومن أخذها بصلته بالله فهو العزيز. فالثبات أمام الطغاة يمنع استعباد البشر للبشر

كما ورد النهي عن التذلل لغير الله لطمع دنيوي لاسيما إذا كان فيه شبهة حرام : قال رسول الله ﷺ (**اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ**)[71].

وعن النبي ﷺ قال (**ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك**)[72]

ومن نصائح النبي ﷺ (**وَأَجْمِعْ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ**) [73]

وقد ورد عن السلف الصالح "**أعزّ المؤمنين من استغنى عن الناس**"، فمن استغنى بالله لا تضرّه مظاهر الزيف الدنيوي لأصحاب الجنات والقصور.

يقول الاستاذ سيد قطب (فأما صاحبه الذي لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر . . فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى . **معتز بعقيدته وإيمانه** . **معتز بالله** الذي تعنو له الجباه ؛ فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور **منكراً عليه** بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم . وينذره عاقبة البطر والكبر . ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار ، وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تبالي المال والنفر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا **يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال** . وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله) [74].

قوله (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) (41) عسى هنا لا تفيد الترجي كما سبق في طلب الجنة ، وإنما تفيد الإشفاق من أن يحصل ذلك له إذا ما تمادى صاحب الجنتين في كبره وتحقيره لغيره[75] ، وفي ذلك إثبات ليقين صاحبه بعاقبة التكبر على الخلق.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا** وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ **وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا**)[76].




فالمطر إذا زاد عن حده يفسد الأرض ، كما في حديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ بَابٍ كَانَ نَحْوَ دَارِ الْقَضَاءِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا ثُمَّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **هَلَكَتْ**

---

71) رواه الترمذي ج8 ص 275 رقم 2227 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 4 رقم 930
72) رواه بن ماجة ج 12ص124 رقم 4092 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 392 رقم 3310
73) رواه بن ماجة ج 12ص207 رقم 4161 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 405 رقم 3363
74) في ظلال القرآن ج5 ص 64
75) إذا دخلت "عسى" على أمر مكروه ومخوف (مثل هلاك الجنة والمال)، فإنها تخرج عن معناها الأصلي (الترجي) إلى معانٍ بلاغية سياقية أخرى، أبرزها:
- الإشفاق والتخويف :وهو ما عبرتَ عنه بدقة؛ أي :إيقاع الخوف في نفس المخاطب وتحذيره من عاقبة أمره لعلّه يرتدع.
- التوقع والتحقيق :الإخبار بالوقوع القريب كما في قوله (عسي أن يكون قريبا)
76) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650

الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا اللَّهُمَّ أَغِثْنَا قَالَ أَنَسٌ وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ قَالَ فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ فَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ **هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ** فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا عَنَّا قَالَ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالظِّرَابِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ** قَالَ فَأَقْلَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ)[77].

هنا أراد صاحبه أن يبين له هوان الاعتماد على الأسباب ، وعدم الاعتماد على الله ، فإبادة حديقته يحصل إما بأسباب سماوية أو أرضية ، وفي كلا الحالتين إما أن يتحسر على ما أصبحت عليه الأرض حين تصير ترابا زلقا كناية عن خرابها بعد أن يفسد الزرق لكثرة المطر ، وتحتاج لوقت طويل حتى تجف ويتم إصلاحها ونفقات أخرى .



أو أن يغور الماء من الأرض ، أي تبتلع الأرض الماء ، وهنا تنقطع عنها أسباب الدوام فلا يجد ماءً ليسقي به الزرع بسبب انخفاض مستوى الماء عن مستوى سطح الأرض ، وهنا يتحسر أكثر وهو يرى عجزه عن طلب الماء ، بل إنه ليراه لكنه عاجز أن يرفعه فيموت الزرع ولا يقدر على فعل شيء .

قوله (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) (42) الإحاطة بالثمر تعني هنا تفقده والنظر فيه ، فإذا به يتفاجأ بالصدمة التي لم يكن يتوقعها ، فقد هلك ثمره كله في لحظة واحدة ، وضاعت كل أحلامه التي كان يحلم بها ، وآماله التي طالما علق طموحه لتحقيقها ، وانهار صرحُ الأماني التي طالما بنى عليه غروره ، ليصبح مع إشراقة الصبح صفر اليدين ، ويجد أنفاسه تقطعت حسرةً على ما أنفق.

قال أهل البيان (عندما وصف الله نشأة الجنتين أسهب واسترسل وفصل سبع جمل "جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب- وحففناهما بنخل-وجعلنا بينهما زرعا-كلتا الجنتين آتت أكلها-ولم تظلم منه شيئا -وفجرنا خلالهما نهرا-وكان له ثمر"....كذلك الحياة تنشأ شيئا فشيئا .. وتنمو جزءً فجزءً .. وتحتاج إلى رعاية وتربية وتدبير ، لكن إذا جاء الموت أتى كلمح بالبصر ليضرب ضربة واحدة...)[78].

---

[77]) رواه البخاري ج4 ص 106 رقم 958

78) ملتقى أهل اللغة : 2 / 527 http://islamport.com/k/mjl/6527/2854.htm

قوله (..وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) (42) وهنا يبدو أنه انتبه لحقيقة واحدة كثيرا ما أغفلها ، **وهي أن الله تعالى هو الذي قدر له هذا الرزق وهو الذي سلبه منه** ، فتذكر ما كان منه من لحظات الغرور والكبر والزهو بما آتاه الله من متاع الدنيا ، وتنبه إلى أن **الرزق عاريّةُ المالك**، لكنه تنبه متأخراً إلى ما سها عنه طويلاً.

إذ أشرك بربه لما قال (مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً)[الكهف:35-36] . فلم يستثن في الجملة الأولى ، ولم يقل (إن شاء الله لم تبيد هذه أبدا) ، فلم يعلق الأمر على المشيئة ، لزهوه بزرعه واغتراره بالدنيا ، واعتماده على الأسباب ، فأسباب التمكين أغرته بأنها لن تهلك أبدا ، أما الجملة الثانية ففيها إما معنى إنكار البعث أو إنكار أن تباغته الساعة ، وكلاهما فيه معنى الاعتزاز بالقيم الأرضية ، ونسيان لقاء الله .

يقول صاحب الظلال (وهو مشهد شاخص كامل : الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء ، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة . وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب ، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته . ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك ، إلا أن **اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن** ، ويندم عليه ويستعيذ منه)[79]،ولعل الأوان لم يفت ولا يزاله صدره يجيش بالنفس ، يقول النبي ﷺ (**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**)[80].

قوله (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) (43) يؤكد أنه كما خذلته جنته وبادت، فقد خذله أيضاً مَن كان يستند إليهم؛ فلم يعتزّ بولدٍ ولا نصيرٍ من أتباعه. وبذلك تبدّد زَهْوُه القديم حين قال متبجحاً (**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**)، لِيؤول به الحال مجرداً من ماله، عاجزاً عن دفع البلاء عن نفسه، دون ناصرٍ يعينه في هذه الجائحة أو مواسٍ يخفف عنه مصابه.

قوله (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ..) (44) يعني : (أن **المحبة والنصرة إنما هي لله –جل وعلا– وليست لغيره**)[81] .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)[المائدة:55-56]

وقد أشار ابن عجيبة إلى ذلك المقام العليّ، في تلك الحال السَّنيّة، حيث تَتجلّى الولايةُ الحقّة لله وحدَه؛ وتنفردُ الذاتُ العليّة بسُلطان النُّصرة، فلا يَقْدِرُ على كفايتها قادِر، ولا ينهضُ بعبئها سِواه. إنّها الرعايةُ الربّانيّة الشاملة، والحياطةُ الإلهيّة الدائمة التي يَحفّ بها سبحانه أولياءَه في عاجلِ الدُّنيا وآجلِ الآخرة؛ فلا يَعتريهم خِذلانٌ في مَوطن، ولا يَخلقُ رجاؤهم في مَشهد. بل يتولّى الحقُّ جلّ وعلا سياستَهم بلُطفه، ويَمُدُّهم بنصرِه، ويَهْديهم بنورِه؛ **جَزاءً لِما اعتصموا بعزّته، وتبرّؤوا من الاعتزاز بسِواه**. وجِماعُ الأمرِ وخاتمتُه: تنزيه لشأن من اعتز بالحق واعتصم بحبله، عمن استمسك

---

[79]) في ظلال القرآن ج5 ص 65

[80]) رواه ابن ماجة ج12 ص 304 رقم 4243 وحسنه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 418 رقم 3430

81) دروس الشيخ : صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ التمهيد لشرح كتاب التوحيد ج2 ص 13

بأوهام السراب واعتز بالباطل. أنّ مَن تّولّى اللهَ وآوى إلى رُكنه المنيع، كان حقاً على الله نصرته، فكانت النُّصرةُ عاقبتَه ومَآلَه، ومن استنصر بغيره وتولى سواه كُتب عليه الذل والخسران.[82]

قوله (..هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا..)(44) يعود الضمير (هو) في الآية الكريمة إلى رب العزة سبحانه؛ فهو " خَيْرٌ ثَوَابًا " من كل ما سواه. فشتان بين جزاء الخالق وجزاء المخلوق؛ فالعبد إن كافأ على صنيعٍ لم يزد على مِثله إلا اليسير، أما الله جل وعلا فيجزي على العمل الواحد بعشرة أمثاله، ويضاعفه إلى سبعمائة ضعف، بل إلى أضعاف كثيرة لا يحصيها عدّ.

وليس هناك ثواب عند الله أعظم من ثواب التوحيد بلا إله إلا الله ، قال رسول الله ﷺ (يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ فَيُنْشَرُ لَهُ **تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا** كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ثُمَّ يَقُولُ أَلَكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فَيُهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ **فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ** قَالَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ **فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ**)[83]

وهو سبحانه (.. وَخَيْرٌ عُقْبًا)(44) ؛ إذ مآل الأمر ونهايته خير ولابد ، فولاية الله خير من كل شيء ؛ فكل العواقب التي يرجوها المرء من بني البشر مآلها إلى زوال، أما العاقبة التي يدّخرها الله لعباده فثابتة خالدة لا تحول ولا تزول.

ونظيره قوله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * **وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**) (الأعلى 17) ، وقوله تعالى (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا **وَالْآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**) (الزخرف 35) .

يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)[84]

---

[82]) البحر المديد ج3 ص 401

[83]) رواه ابن ماجة ج12 ص 356 رقم 4290 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج9 ص 300 رقم 4300

[84]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021